

لماذا الدين ؟

أ.د.حامد طاهر

الإنسان بعقله ، وبمستوى الذكاء الموجود فيه - لا يستطيع أن يخترق بعض الحجب التى تحيط به وبوجوده فى هذه الحياة . فهو لا يعرف أبداً سر المولد، وسر الموت ، وسر الملائحية، وسر الأبد . وكل ما يمكنه التوصل إليه ينحصر فى مجموعة قوانين تتحكم فى بعض الظواهر الطبيعية ، وبعض القوانين الرياضية والميكانيكية التى تتيح له صنع الآلات والأدوات والأجهزة التى يستخدمها. أما تلك الأسرار الكبرى فهى التى ذلت الأديان السماوية لكى تشير إليها ، وتدلل عليها ، داعية الإنسان أن يستخرج منها مفهوماً شاملاً عن الكون والحياة .

ومما يدل على أن الإنسان — بما فى ذلك الأنبياء - قد كان يطمح إلى معرفة المزيد : ما ورد فى القرآن الكريم ، خاصاً بموسى عليه السلام ، الذى كلمه الله تكليماً ، لكنه طلب منه أن يراه . (رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ) (قال لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَاَلَمْ تَجَلْ لِي رَبِّهِ لِيَجْبَلَ جَعَلَهُ دُكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا) .

وإبراهيم عليه السلام ، طلب نفس المطلب ، فقال له الله تعالى (أَوَلَمْ تَتُؤْمِن) فقال : (بَلَى وَلَسَكَ لِي طَمَعٌ نَّ قُلُوبِي).

ويؤكد لنا القرآن الكريم أن كلا منهما لم يحصل على إجابة طلبه ، لأن الله تعالى لا يمكن رؤيته بعين الإنسان المحدودة القدرة . وأبسط مثال على ذلك أنه لا يستطيع أن ينظر بها مباشرة إلى قرص الشمس ، التي هي إحدى مخلوقات الله !

الدين إذن هو الذى يحكى للإنسان عن بدء خلقه ، وكيف أن جسده تكون من صلصال كالفخار ، ثم انه لم يتحرك وتدب فيه الحياة إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه. ومن المهم أن الإنسان راج يسأل عن حقيقة هذا الروح ، ولكن الإجابة جاءت قاطعة (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

وبهذا يمكن القول بأن الدين أعطى للإنسان من الإجابات التي يتحملها عقله المخلوق ، وأبقى بعض الأسرار الكبرى التي يبدو أنها لن تنكشف له إلا بعد مغادرة هذه الحياة (فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد).

وبالنسبة إلى سؤال : هل الدين ضروري للإنسان ؟ أقول : أجل ، بكل تأكيد . فالإنسان مهما سيطر على الدنيا - بتسخير الله تعالى له - يظل ضعيفاً ، ومحدود القدرة ، ومحتاجاً للعناية الإلهية التي تحفظ عليه نعمة الحياة ، وتساعد في تعمير الأرض .

ولولا أن الإنسان خلق جحوداً وناكراً للجميل ، لما مست الحاجة إلى تذكيره بفترة طفولته التي كان يحتاج فيها إلى من يسقيه ويطعمه ويكسوه وينظفه ويقوم بكل أموره الحياتية لحظة بلحظة . فإذا وصل إلى مرحلة الشباب ظهرت حاجته إلى رقيقة عمره التي تسعده وتساعد على تحمل أعباء المعيشة ، وتنجب له الأبناء الذين يشدون من أزره ويصبحون امتداداً له . فإذا وصل مرحلة الشيخوخة بدأت حاجته تزداد إلى كل من حوله ليأخذوا بيده على المقيام والمقعود وتناول الدواء ..

ولما شك أن كل إنسان تأتي عليه لحظات قوة يشعر فيها بالقوة والاستقواء ، لكنه ما يلبث أن يتعرض للحظات أخرى يحس فيها بالضعف والمخذلان . فإذا ما كان يؤمن بالدين ، ويعترف بوجود الخالق ، الرازق ، الذى بيده ملكوت كل شئ فإنه ينجو من ضلالات الحيرة والتميه ، ويستند إلى ركن شديد .

والإنسان ليس حيواناً متوحشاً يمكنه أن يعيش وحده فى الغابة كالنمر مثلاً ، وإنما هو كائن اجتماعى لابد أن يحيا وسط جماعة متألّفة . وكما أن عمليات التبادل لا تتوقف بينه وبين تلك الجماعة ، فإن خروجه على قوانينها ، وأعرافها ، وتقاليدها ، ودينها .. يعتبر شذوذاً من الجماعة ، ولذلك فإنها لا ترضى به ، وقد تنزل به أشد العقاب . أما إذا كان متألّفاً مع الجماعة فى دينها ، فإنه يحظى بمشاركتها فى احترام الشعائر ، وأداء الطقوس ، وتطبيق الأخلاقيات . وبذلك تتحقق فيه خصائص الكائن الاجتماعى المتناغم مع الجماعة ، وليس الخارج وحده عن صفوفها .

والدين ليس فقط راحة نفسية للإنسان ، وإنما هو تحقيق لوجوده الحقيقى ، ويكفى أن يتجرد الإنسان ليسأل نفسه : من أين أتيت ؟ ولماذا أنا موجود ؟ وإلى أين المصير ؟ وهى الأسئلة الثلاثة التى طرحت على الفلسفة فى كل عصورها دون أن تقدم لها إجابة متكاملة مقنعة ، لكن الدين وحده هو الذى أجاب عنها ، وقدم الأدلة الكافية على صحة هذه الإجابة .

